آيَاتُ الْعِتَابِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَثَرُ دَلَالَةِ التَّنْغِيمِ فِيهَا

منى قاسم معارج الجعيفري

فحوى البحث

العتـــاب فن دقيق من فنون الخطاب البلاغي في اللغة العربية. فهـــو يأتي في مخاطبة الاحباب والمدللين اذا قاموا يفعل ينكـــره المعاتِب، أو يتركون فعلاً يحبه، أو للحث على القيام بالفعل أو تركه، فضلا عن انه يحمل دلالة التأديب والترويض والتنبيه والتذكير.

والبحث عرض لأسلوب العتاب في القرآن الكريم والذي لايختلف عن مفهومـــه عنـد البلاغيين والأدباء. وستعرض السيدة الباحثة صوراً حية لاسلوب العتاب فيه.

الملخّص

إن مفهوم العتاب هو مخاطبة الإدلال والأحباب ومذاكرة الموجدةِ وذلك لقيامهم بعمل أو عدم القيام به فيحدث العَتبُ لدى العاتب فيقوم المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب وهذا المفهوم وللتنغيم وظيفة دلالية تمييزية في كثير من اللغات. وعن طريق التغييرات الموسيقية في الكلام المسمّاة بـ(التنغيم) يُعبَر عن الحالات النفسيّة المختلفة من المشاعر والأحاسيس التي تنتاب الإنسان في كثير من اللغات، ولاسيما العربية، إذ تختلف وتتغير النغمات بحسب المواقف الانفعالية، فتستعمل تنغيماً خاصاً لكل من الحزن والفرح والدهشة والرضا والغضب والاحتقار والاستهزاء... الخ.

مقدمة:

العتاب فنٌ دقيقٌ وقد جاء في القرآن الكريم يحمل دلالات لا تختلف عن دلالته اللغوية، فقد جاء لمذاكرة الموجدة، ومخاطبة الأحباب والمدللين، والرجوع عن القيام بالفعل أو للحث على القيام به الذي جاء العتاب لأجله، فضلاً عن ذلك جاء يحمل دلالة التأديب والترويض، والتنبيه والتذكير.

ومن أروع صور العتاب ما جاء في القرآن الكريم والسُّنّة النبوية المطهرة فكان رسول الله ﷺ يلمح له إذا بلغه عن أحد ما يكره لم يقل ما بال فلان، ولكن بقول: ما بال أقوام يصنعون، أو يقولون كذا[1] وهذا من أرق صور العتاب التي عرفتها الإنسانية جمعاء.

قال الإمام علي (كرم الله وجهه): (عاتبْ أخاك بالإحسان إليه، واردد شرَّهُ بالأفضال عليه)[2].

وكان مفهوم العتاب الوارد في القرآن الكريم والسُّنّة النبوية الشريفة لا يختلف عن مفهومه عند البلاغين والأدباء فقد قال الجاحظ (ت٢٥٥هـ): (واعلم أن كثرة العتاب سبب للقطيعة، واطراحِهِ كلُّهُ دليلُ على قلة الاهتمام والأكتراث لأمر الصديق، فكن فيه بين أمرين عاتبهُ

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري (ت٧٣٣هـ): ١٨/ ٢٥٦.

(٢) غرر الخصائص الواضحة، غرر النقائض الفاضحة، يحيى بن علي المعروف بالوطواط (ت٧١٨هـ): ٥٤٨.

فيما تشتركان في نفعه وضرّه، وذلك في الهينات وتجاف له عن بعض غفلاته تسلم لك ناحيته)[٣].

والعتاب حدائق المتحابين، وثمار الأدواء، ودليل على الفن بالصفاء، وحركات الشوق، ومستراح الواجد، ولسان الإشفاق ومفتاح التفاني، وحياة المودة وظاهره خير من الحقد[٤].

وصاحب العمدة في محاسن الشعر وآدابه يقول: إن العتاب (وإن كان حياة المودة وشاهد الوفاء فإنه... سبب وكيد من أسباب القطيعة والجفاء، فإذا قل كان داعية الألفة وقيد الصحبة وإذا خَشُنَ جانبه، ثقل صاحبه)[٥].

ويرى الدكتور أحمد بدوي أنّ (العتاب إنْ قلّ شّد من أواصر الود، وحفظ روابط المحبة وإذا كثر خشن جانبه وثقل صاحبه)[٦] وهو بهذه الرؤية يقترب كثيراً من رؤية الجاحظ وصاحب العمدة.

والعتاب نعم الدواء إذا عرض في الود داء، ومن منافع العتاب إنه يطري خُلق الود ويجلو غبرة العهد ويداوي أدواء القلوب، ويترجم عن خفيات الغيوب[٧].

مما سبق يتضح لنا أن المغالاة في العتاب تكون سبباً في النَّفرة وربما يُكوِّن صورة سيئة ينعكس على صاحبه مما يؤدي إلى القطيعة والهرب منه إما إذا كان العتاب بالصورة الصحيحة فإنه يكون سبباً في تقوية أواصر المحبة والأُلفة.

وقد وردت ألفاظ العتاب في القرآن الكريم، ولم ترد لفظة (عتب) وإنما مشتقات هذه اللفظة في آيات محددة من القرآن الكريم وهي: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [سورة النحل: ٨٤].

(٣) ينظر: الرسائل السياسية، عمر بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ): ٨٧، ورسائل الجاحظ: ١/ ١٢٧.

(٤) ينظر: الصداقة والصديق، أبو حيان التوحيدي(ت٤٠٠هـ): ١/ ٢٧٤، التمثيل والمحاضرة، الثعالبي (ت٤٢٩هـ): ٤٦٤.

(٥) العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ): ٢/ ١٦٠.

(٦) أُسس النقد الأدبي عند العرب، الدكتور أحمد بدوي: ٢٦١.

(٧) ينظر: سحر البلاغة وسر البراعة، الثعالبي (ت٤٢٩هـ): ١٣٥.

دلالة التنغيم في آيات العتاب:

الدلالة الصوتية:

الأصوات هي (التي تصدر من آلة النطق لدى الإنسان)[٨]، وللصوت وظيفة يؤديها إذا خضع لقواعد معينة تعنى بالصوت وأدائه، وتُعدُّ الدلالة الصوتية من التسميات الحديثة التي شغلت حيزاً كبيراً من الدراسات اللغوية، وهذه الدلالة "تُستَمدُ من طبيعة الأصوات"[٩]، نغمها جرسها "والدلالة الصوتية تعدُ قطعة من المنظومة العامة؛ للدلالة تنهض بدور كبير في تحديد واستضاءة ملامح الخطاب، ورفده بظلال الإيحاءات والقيم"[١٠].

ولم تكن هذه الدراسة الصوتية الدلالية علماً قائماً بنفسه كما هو حال علمي النحو والصرف، فأول الأمر كانت مبنية على علاقة الصوت بالمعنى فـ"استعمال حكاية الصوت؛ للوصول إلى أغراض إيحائية بالمعاني الطبيعية التي تضيف إلى المعاني العرفية للألفاظ أبعاداً إضافية ما كان لها أن تتحقق لولا ما تجعله حكاية الصوت من طاقة إيحائية"[١١].

وأول من أشار إلى هذه العلاقة هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) بقوله: "صَرَّ الجندب صريراً، وصرصر الأخطب صرصرة...، وكلُّ صوتٍ شِبهُ ذلك فهو صرير إذا امتدَّ..."[١٢].

أما ابن جني (ت٣٩٢هـ) فقد كان متميزاًعن غيرهِ لتوسعه في مباحثه الصوتية الدلالية التي وضعها تحت عنوان (الدلالة اللفظية)[١٣] فضلًا عن التوافق بين جرس الألفاظ ودلالاتها فيما لا صلة له بالمناسبة الطبيعية فقال "فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفهِ أصوات الأفعالِ التي عبّر بها عنها"[١٤]. ومن الأمثلة على ذلك

(٨) مدخل إلى علم أصوات العربية، د. غانم قدوري: ٤٣.
(٩) دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس: ٣٥.
(١٠) تجليات الدلالة الإيحائية، د. فخرية غريب: ١٩.
(١١) البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان: ٢٩٣.
(١٢) العين: ٧/ ٨١-٨٢.
(١٣) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جنى (ت٣٩٢هـ): ٣/ ١٠٠.
(١٤) الخصائص: ١/ ٦٦.

قوله: "ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس وخضم في الرطب وذلك لقوة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف"[١٥].

وحدد العلماء المحدثون[١٦] الأُسس العامة للجانب الصوتي، وهذا في مجال توظيف الأصوات اللغوية، وأثرها في إيضاح المعنى، العتاب.

التنغيم لغة:

"نغم: النون والغين والميم ليس إلاَّ النغمة...، وهو النَّغْمُ، وتنغم الإِنسانُ بالغناءِ ونحوه"[١٧]، أي: جرس الكلمة وحسن الصوت في القراءة وهو حسن النغمة، وإنه ليتنغمَّ بشيء... أي يتكلم بهِ النَّغَم الكلام الخفي[١٨].

والتنغيم اصطلاحاً: "المصطلح الصوتي الدالّ على الارتفاع (الصعود) والانخفاض (الهبوط) في درجة الجهر في الكلام"[١٩]، أي: إنّهُ "ارتفاع الصوت وانخفاضه أثناء الكلام"[٢٠].

وبعض المحدثين من دارسي الأصوات من سمّى التنغيم بتسميات متعددة منها[٢١] (النبر الموسيقي)[٢٢]، أو (موسيقى الكلام)[٢٣].

وللتنغيم وظيفة دلالية تمييزية في كثير من اللغات[٢٤] وعن طريق التغييرات الموسيقية في الكلام المسمّاة بـ(التنغيم) يُعبَر عن الحالات النفسيّة المختلفة من المشاعر والأحاسيس التي تنتاب الإنسان في كثير من اللغات، ولاسيما العربية، إذ

(١٥) المصدر نفسه: ١/ ٦٦.
(١٦) ينظر: علم الأصوات، كمال محمد بشر: ١١٥ -١١٦، الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ٤٥ -٤٦، مدخل إلى علم أصوات العربية، غانم قدوري الحمد: ٨٣ -٨٤.
(١٧) مقاييس اللغة مادة (نغم): ٥/ ٤٥٢.
(١٨) ينظر: لسان العرب مادة (نغم): ١٢/ ٥٩٠.
(١٩) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٥٩.
(٢٠) مناهج البحث في اللغة: ١٦٤، وينظر: علم الأصوات: ١٦٣.
(٢١) ينظر: المصطلح الصوتي في الدراسات الصوتية، عبد العزيز الصيغ: ٢٦٣.
(٢٢) ينظر: علم الأصوات، برتيل مالمبرج: ٢٠٩.
(٢٣) ينظر: الأصوات اللغوية: ١٤٢، والتفكير اللغوي بين القديم والجديد، كمال محمد بشر: ١٥٢.
(٢٤) ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس: ١٦٣.

تختلف وتتغير النغمات بحسب المواقف الانفعالية، فتستعمل تنغيماً خاصاً لكل من الحزن والفرح والدهشة والرضا والغضب والاحتقار والاستهزاء... الخ[٢٥].

فمثلاً في نطق التعبير (يا إلهي) بأشكال متعددّة من التنغيم، وذلك تبعاً لموقف المتحدث ومزاجه أيَّ لكل شكل منها معنًى انفصالي متميزمن غيره، فقد يدلّ على التحسر، أو الزجر، أو عدم الرضا، أو الغضب، وما إلى ذلك[٢٦].

ولم تكن هذه الاختلافات في درجة الصوت في أثناء الكلام إلاّ لأهداف أو غايات، إذ يتم عن طريقها التمييز بين المعاني المختلفة للجملة أي بالتنغيم نستطيع تغيير دلالة الجملة، من نغمة الاستفهام إلى النغمة التعجبية فنغمة الاستفهام بالتأكيد تختلف عن نغمة التعجب وعن نغمة الجملة الخبرية، وهي في الجملة المنفية مختلفة عنها في المثبتة[٢٧]، من دون أن يحصل أي تغيير لهذه الجملة في بنيتها، ولم يضف إليها، أو يُحذفُ منها شيء، إذ لم يتغير فيها إلاّ التنغيم، فالنغمة هي العنصر الوحيد الذي نتج عنه اختلاف هذه المعاني، وما يصاحبها من سمات صوتية أُخرى، كالنبر القوي، وتطويل الحركة، فضلاً عن تعبيرات الملامح أو الإشارات الجسمية[٢٨]. مما يُعدُّ قرينة صوتيةً توضح اختيار المتكلم لنوعٍ معينٍ من أنواع التفسير النحوي الدلالي[٢٩]. والتنغيم يؤدي دوراً يشبه دور علامات الترقيم في الكتابة[٣٠]، إذ "يقع في الخطاب المنطوق، ويقابله في الخطاب المكتوب علامات الترقيم... غير أن التنغيم أوضح

(٢٥) ينظر: دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر: ٢٢٩ -٢٣٠، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي: ١٨٤، الصوتيات والفونولوجيا، د. مصطفى حركات: ٤٤-٤٥.

(٢٦) ينظر: علم الأصوات: ٥٣٤.

(٢٧) ينظر: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي: ١٠٦، والدلالة اللغوية عند العرب، عبد الكريم مجاهد: ٧٣.

(٢٨) ينظر: علم الأصوات، كمال محمد بشر: ٥٤٠، واللغة العربية معناها ومبناها، د. تمام حسان: ٣٠٩.

(٢٩) ينظر: النحو والدلالة، د. محمد حماسة: ٤٤.

(٣٠) ينظر: علم الأصوات: ٥٤٢.

من الترقيم في الدلالة على المعنى الوظيفي للجملة"[٣١]، وعليه فقد حلت الكثير من مشكلات الدلالة اللغوية التي لها علاقة بالأصوات والسياقات التنظيمية، ولهذا عُدَّ مصطلحاً صوتياً وظيفياً[٣٢].

فقد تخلو الجملة من أدوات معينة كأدوات الاستفهام، أو النداء مثلاً، فيكون التنغيم بارزاً وكبيراً في تحديد المقصود بمعية المقام والسياق[٣٣]، ولهذا يكون للتنغيم الأثر الكبير في الحكم على أسلوب الجملة ودلالتها[٣٤].

وقد اختلف في تحديد هذه النغمات باختلاف مناهجهم[٣٥] وكان هناك ثلاث نغمات (صاعدة، ومستوية، وهابطة)[٣٦] وما زاد على هذه الثلاثة يندرج تحتها، ويمكن أن تعدّ هذه الثلاثة الأساس في هذا التحليل، النغمة الصاعدة تتمثل: في أساليب الاستفهام، الأمر، والنهي المحض، والتعجّب والإهانة، والإثارة، والترغيب.

النغمة المستوية: تتمثل في الأسلوب الخبريّ، والتقريريّ، والنصح والإرشاد والنداء المحض، وطلب الانتباه.

النغمة الهابطة: وتتمثّل في أسلوب التمنّي، والتهكّم، وإظهار الحزن والأسف[٣٧]. ولعدم توفر المختبرات والأجهزة الدقيقة التي تعين الباحثة على التوصل إلى نتائج دقيقة وقطعية، لذا فإن من الصعب تحديد أي من التقسيمات السابقة الأكثر دقة، وبعد الإحاطة بمفهوم التنغيم وأنماطه يتوجب علينا أن نحلل بعض الآيات القرآنية مبّرزين فيها أثر التنغيم وأنواعه في الاستدلال على العتاب.

(٣١) التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، محمود عكاشة: ٥٢.

(٣٢) ينظر: التنغيم اللغوي، د. سمير إبراهيم: ٢٧.

(٣٣) ينظر: التنغيم اللغوي، د. سمير إبراهيم: ٢٧.

(٣٤) ينظر: التفكير اللغويّ بين القديم والجديد: ١٣٩ -١٤٠.

(٣٥) ينظر: مناهج البحث في اللغة: ١٦٥، والكلمة، د. حلمي خليل: ٤٧، والتنغيم اللغوي: ١٥٧، ودراسة السمع والكلام، سعد مصلوح: ٢٢٢ -٢٢٣، والتشكيل الصوتي: ١٤١.

(٣٦) نحو اللغة وتراكيبها، خليل أحمد عمايرة: ١٧٣.

(٣٧) ينظر: التنغيم اللغوي: ١٥٧.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾[سورة الحديد: ١٦].

"نزلت في المؤمنين... أُنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله لو قصصت علينا فأنزل الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [سورة يوسف: ٣] فتلاه عليهم زماناً فقالوا يا رسول الله لو حدثتنا فأنزل الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[سورة الزمر: ٢٣]...، وزاد فيه آخر قالوا يا رسول الله لو ذكرتنا فانزل الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحديد: ١٦]..."[٣٨]، قال: "ابن عباس: إنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن"[٣٩]، والهمزة في: (ألم يأن)، "أي: ألم يقرب خشوع قلوبهم"[٤٠] خرجت عن معناها الحقيقي، وللتنغيم أثر كبير في التوصل إلى المعنى الحقيقي، فقد أشار المفسرون إلى التنغيم، وذلك عند بيانهم أن الآية وردت بطريق الاستبطاء[٤١]، والعتاب، "الحضّ والتقريع"[٤٢]. (والإنكار)[٤٣] وهناك تقارب كبير بين هذه الدلالات، وأن المراد من ذلك العتاب مؤثر من المولى الكريم الرحيم لاستبطاء الاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله... عتاب فيه الود، وفيه الحض، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله...، مع رائحة التنديد والاستبطاء في السؤال[٤٤]، وقد أسهم نوع النغمة في

(٣٨) أسباب النزول، للواحدي: ٤٠٧.
(٣٩) الكشاف: ٤/ ٤٧٧، وينظر: مجمع البيان، الطبرسي، : ٩/ ٣٩٤، والبحر المحيط: ١٠/ ١٠٨.
(٤٠) الدر المصون، السمين الحلبي (ت٧٥٦هـ): ١٠/ ٢٤٦، وينظر: أرشاد العقل السليم: ٢/ ٣٨٩.
(٤١) ينظر: الكشاف: ٤/ ٤٧٧، وغاية الأماني، أحمد بن إسماعيل الحنفي (ت٨٩٣هـ): ٩٤، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ١٠٨.
(٤٢) المحرر الوجيز: ٥/ ٢٦٤، وينظر: الجواهر الحسان: ٥/ ٣٨٦.
(٤٣) التحرير والتنوير: ٢٧/ ٣٩٠.
(٤٤) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٤٨٩.

نطق الآية المصاحبة لأسلوب الاستفهام على هذا التعدد في المعاني: "إنّ هذا التعدّد دليل على ما نريد أن نؤكده من أن المعنى الذي يفيده الاستفهام سائح ومتفلت، وإننا نحاول السيطرة عليه بمثل هذه الأوصاف الكثيرة الناقصة التي توهم أنها تحيط بهِ، ولكنها لا تستخرج منه إلا بعض إشارات، أو لا تصف منه إلاّ ما كان يظهر، وترى ذلك كثيراً في الأساليب الثريّة والسياقات الحيّة"(٤٥).

فدرجة الصوت في نغمة الاستفهام دائماً ما تكون صاعدة، ثم تهبط بالتدرج حتّى تصل إلى أدنى مستوى لها وهي الهابطة(٤٦)، وعند خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معانٍ آخر، قد تتغير هذه الدرجة النغميّة، وفي هذه الآية دلّ الاستفهام على معانٍ متعددة، هي: الاستبطاء، والعتاب، والحض والتقريع، والإنكار، والتقرير، فهي صاعدة أو عالية في التقريع على حين هي نغمة مستوية هابطة في الإنكار والعتاب ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

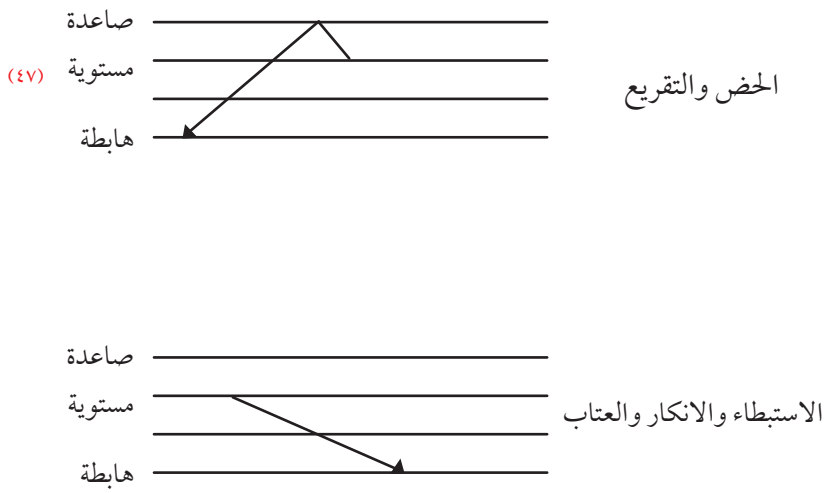

(٤٥) دلالات التراكيب، محمد أبو موسى: ٢١٨.
(٤٦) ينظر: التشكيل الصوتي: ١٤٤.
(٤٧) التغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٧٢.

نستدل من ذلك أن العتاب شديد في سياق نغمة التقريع والحضّ، في حين هو لطيف في سياق نغمة الاستبطاء، والإنكار.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [سورة الصف: ٥].

هذه الآية في إطار معاتبة النبي موسى عليه السلام لقومه، إذ هم ناتج عن عصبياتهم ومخالفتهم له، فقوله تعالى: ﴿ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى ﴾ من المفسرين من رأى أنها عتاب مودة وتذكير[٤٨] والنداء: "استعطاف لهم واستنهاض لرضى ربِّهم"[٤٩] على مقتضى ملاينة الرسل مع أممهم؛ ليردوهم عن سوء الأدب[٥٠] ﴿ وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ عالمين علماً يقيناً أني رسول الله[٥١]، "إنما هي لهجة العتاب والتذكير"[٥٢]، ومن المفسرين من رأى أنها توبيخ وإنكار[٥٣] فالنداء بوصف قوم، تمهيد للإنكار، والاستفهام للإنكار، أي: أنكر عليهم أن يكون لإيذائهم إياه سبب[٥٤]، فهذا الاستفهام يراد بنغمته شيئاً غيره، وهذا يعني أن التنغيم يقف حائلاً أمام كون الاستفهام حقيقياً[٥٥] فقد خرج هذا الاستفهام إلى معانٍ ودلالاتٍ متنوعة ولا شك في أنَّ التنغيم هو المتحكم بهذا التنوع الدلالي[٥٦]، فلكل دلالة من هذه الدلالات حالة نغمية محددة وأداء يختلف عن غيره[٥٧]، وهذا التعدد دليل على ما نريد أن نؤكده من أن المعنى الذي يفيده الاستفهام خفيٌّ وسائحٌ ومتفلتٌ، ولذلك نجد قارئ

(٤٨) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥٥٦.
(٤٩) نظم الدرر: ١٠/ ٢٠.
(٥٠) ينظر: الفواتح الإلهية: ٢/ ٤٠٩.
(٥١) مدارك التنزيل حقائق التأويل: ٣/ ٤٧٥.
(٥٢) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٥٥٦.
(٥٣) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢/ ٣٧١، وإرشاد العقل السليم: ٨/ ٢٤٣.
(٥٤) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٨/ ١٧٨.
(٥٥) ينظر: من وظائف الصوت اللغوي، محمد الكشك: ٦٣.
(٥٦) ينظر: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، الدكتور أحمد البايبي: ١/ ٢٦٧.
(٥٧) ينظر: علم الأصوات اللغوية، د. مناف مهدي: ١٣٥.

القرآن يعمد إلى الصوت، فيرفعه، أو يخفضه، أو يوزعه في علو وانخفاض في تقطعات وتنغيمات معينة يريد بذلك أن يحمل الأنغام ما أحسَّأنه تفلت من الكلمات والتراكيب[٥٨]، فنوع التنغيم ذو تأثير كبير في تعيين دلالات التراكيب اللغوية في آيات القرآن الكريم[٥٩] وسواء حُمل الاستفهام هنا، على العتب أم على التوبيخ والإنكار فنوع النغمة لم يتغيّر فهي مستوية هابطة[٦٠]، ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي[٦١]:

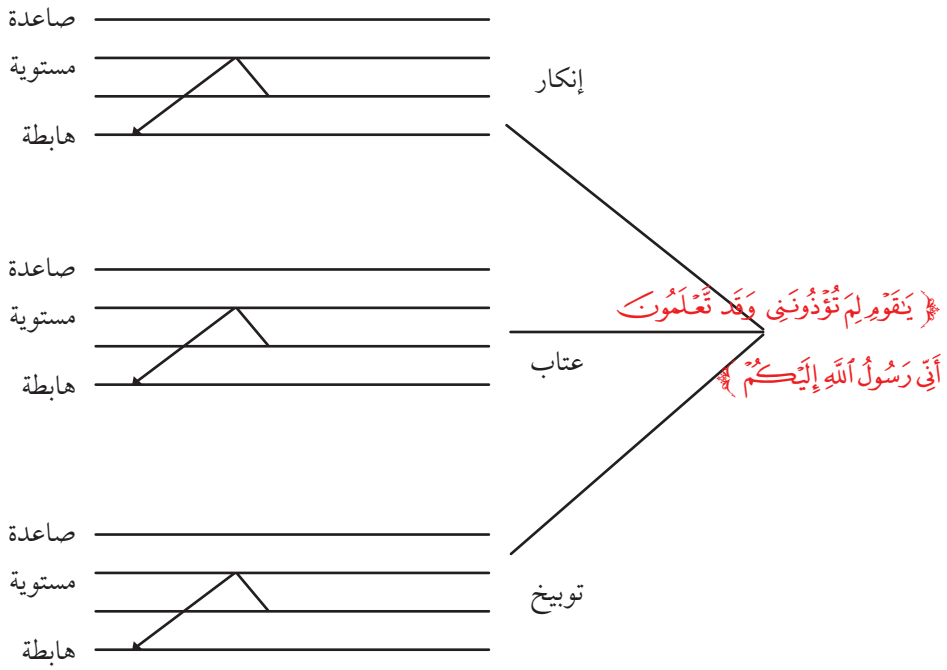

(٥٨) ينظر: دلالات التراكيب: ٢١٨.

(٥٩) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٥٧.

(٦٠) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٧.

(٦١) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٧٢.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ [سورة يوسف: ٨٩].

هذه الآية الكريمة في سياق الحوار الذي دار بين يوسف، وإخوته «فلما انتهى الأمر، وبلغ أشدّه، رقَّ لهم يوسف رقَّة شديدة، وعرّفهم بنفسه وعاتبهم»[٦٢]، وقد أشار المفسرون إلى أن الاستفهام خرج لدلالاتٍ متعددة وفي ذلك إشارة إلى التنغيم، إن الآية وردت بطريق (يفيد تعظيم الواقعة)[٦٣]، و(التذكير والتوبيخ)[٦٤]

(التقريع والتوبيخ)[٦٥] أو (التوبيخ)[٦٦] أو (التفضيح والتقريع)[٦٧].

وبين دلالات التوبيخ والتقريع، والعتاب تقارب كبير، إذ إنّ التوبيخ هو التهديد واللوم وشدة التأنيب[٦٨] وأنّ التقريع: التأنيب وشدة اللوم[٦٩]، والعتب العتبان لومك الرجل على إساءة كانت له إليك فاستعتبته[٧٠] منها وقد ساعد هذا التعدّد في المعاني المصاحبة لأسلوب الاستفهام على تنويع النغمة في نطق الآية.

فإن كلّ خروج دلاليّ يواكبه تغيّر في مستوى الأداء والتَّنغيم، فما جاء بصيغة الاستفهام ومعناه التعظيم له أنماط تنغيمية تختلف عمَّا جاء بالصيغة التركيبية نفسها، ولكن بمعنى التقريع، أو التوبيخ...، فلكلِّ معنىً خاصٍ أنماط خاصَّة[٧١]،

(٦٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت١٣٧٦هـ): ٤٠٤، وينظر تيسير التفسير، إبراهيم القطان (١٤٠٤هـ): ٢/ ٢٦٤، المنتخب في تفسير القرآن، لجنة من علماء الأزهر: ٣٤٧.

(٦٣) مفاتيح الغيب: ١٨/ ٥٠٤، وينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤/ ١٢١.

(٦٤) الجامع الأحكام القرآن: ٩/ ٢٥٥.

(٦٥) البحر المحيط: ٦/ ٣١٨، وينظر: فتح القدير: ٣/ ٦٢.

(٦٦) الدرر المصون: ٦/ ٥٥١، وينظر: التحرير والتنوير: ١٣/ ٤٧.

(٦٧) الفواتح الإلهية: ٣٨٤.

(٦٨) ينظر: لسان العرب، مادة (وبخ): ٣/ ٦٦.

(٦٩) ينظر: لسان العرب، مادة (قرع): ٨/ ٦٦.

(٧٠) ينظر: تاج العروس، مادة (عتب): ٣/ ٣١٠.

(٧١) ينظر: القضايا التطريزية في القراءات القرآنية: ٢/ ٢٨٢.

فدرجة الصوت في نغمة الاستفهام عادة ما تكون صاعدة، ثم تهبط حتى تصل إلى أدنى مستوى لها، وهي الهابطة[٧٢]، وقد تتغيّر هذه الدرجة النغميّة عند خروج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أُخر، وفي هذه الآية دلّ الاستفهام على معانٍ كثيرة منها: التفضيح، والتقبيح، التقريع، والعتاب والتوبيخ والتذكير والتشبيه، وسواء حُمِلَ الاستفهامُ هنا على العتاب، أم التوبيخ والتقريع فنوع النغمة لم يتغير فهي مستوية هابطة، أما حمله على التقبيح وتعظيم الواقعة فالنغمة تكون صاعدة أو عالية ثم تتدرّج منتهية إلى أقل مستوى من النغم الكلاميّ أما نغمة التذكير، والتنبيه فالنغمة تكون مستوية، ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي:

(٧٣)

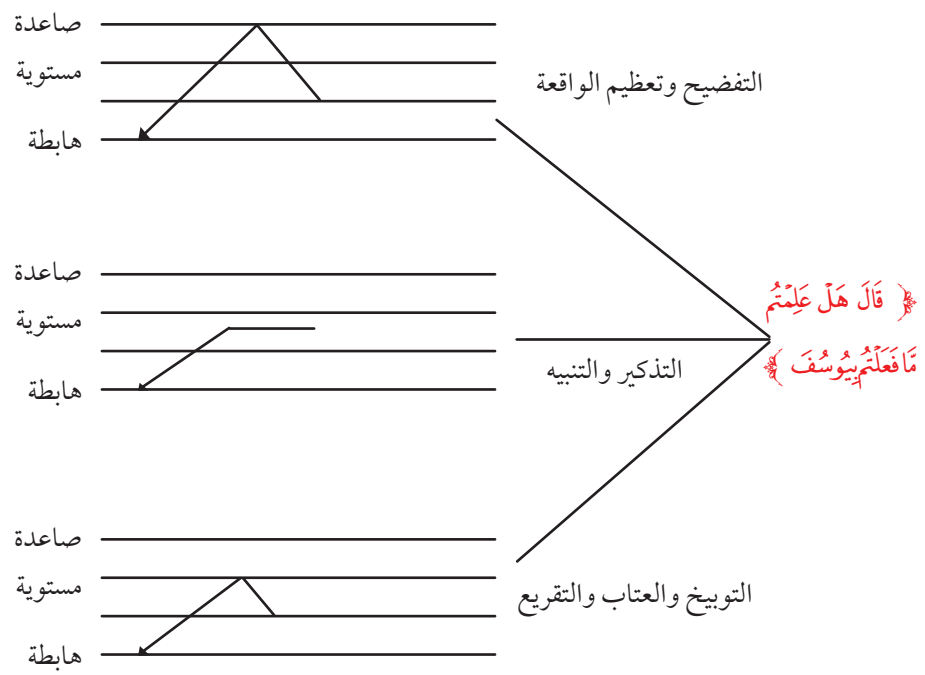

(٧٢) ينظر: التشكيل الصوتي: ١٤٤.

(٧٣) ينظر: التنغيم اللغوي في القرآن الكريم: ١٧٢.

فالنغمة في المستوى الأول دلّت على عظم ما ارتكبتم في يوسف، وما أقبح ما أقدمت عليه، ثم تهبط بإيجاد العذر (إذ أنتم جاهلون)[٧٤].

أما نغمة التذكير والتنبيه: فتذكرهم بما وقع منه أيام جهل الشباب، وينبههم على التوبة الخالصة لله[٧٥]. الذي تلائمه نغمة التذكير للتوبة الخالصة.

وجاءت نغمة التوبيخ والعتاب والتقريع: "وذلك.. لما رآهُم حريصين على رغبات أبيهم في طلب فداء بنيامين... عَلِمَ أَنَّهُم تابوا إلى صلاح"[٧٦] فتناسب مع هذا التفسير القراءة بنغمة عتاب وتوبيخ.

النتيجة:

١- للصوت أثر كبير في تصوير المعنى في موضوع العتاب من خلال الربط بين صفة الصوت وصفة الحدث الذي جاءت تصوره، فنجد في كتاب الله لجنس الإنسان أصواتاً اتسمت بالوضوح السمعي والقوة، لتخرج لنا بدلالة العتاب الشديد الذي يحمل التهديد في طياته لهذا الإنسان المتجبر على خالقه.

٢- وجد البحثُ أن لظاهرة تكرار الأصوات، ولاسيما مع معاتبة الأنبياء أقوامهم أثراً كبيراً في الدلالة على إخراج معنى العتاب والتنبيه على الخطأ والمعصية التي يقترفها من يتلقى العتاب، فضلاً عن انه مثل هذا العتاب يحمل القوة.

٣- وتوصل البحث إلى أن العتاب الصادر من المؤمنين إلى أنبيائهم أي من درجة أدنى من درجة المعتوب عليه يمتزج بالتوسل، والملاطفة، واللين تأدباً مع هذا المقام، وليكون أكثر تأثيراً وهذا ما صوّرته لنا أصوات اللين التي طابقت المعنى وأخرجته على أحسن وجه في معاتبة أبناء النبي يعقوب عليه السلام لأبيهم الذي امتزج بالتوسل واللطف والهدوء.

٤- الظواهر الصوتية غير التركيبية لها أثر في الإيحاء بالدلالة، فكان لدرجات

(٧٤) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٨/ ٥٠٤.
(٧٥) ينظر: الكشاف: ٢/ ٥٠٠-٥٠١، الجواهر الحسان: ٣/ ٣٤٩.
(٧٦) التحرير والتنوير: ١٣/ ٤٧-٤٨.

التنغيم الأثر الأكبر في استخراج دلالة الاستفهام الذي جاء في هذه الآيات، فالقارئ عن طريق الأداء والتلاوة المعبرة يستطيع أن يفسر القرآن بصوته وأدائه؛ ليصل بنا إلى الدلالة المقصودة، فتحقيق تغيّر الأداء الصوتي للآيات له دلالات مهمة في التوصل إلى المعنى الحقيقي المراد من الآيات.

أهم المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. الأصوات اللغوية، دكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية (٢٠٠٧).

٢. الأصوات اللغوية، الدكتور عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثانية (٢٠١٤م).

٣. التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، الدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).

٤. التشكيل الصوتي في اللغة العربية فونولوجيا العربية، دكتور سلمان حسن العاني، الطبعة الأولى (١٩٨٣م).

٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م).

٦. التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، الدكتور سمير إبراهيم وحيد العزاوي، دار الضياء للنشر والتوزيع-عمان -الأردن، الطبعة الأولى (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

٧. الرسائل السياسية، عمر بن بحر الكناني بالولاء الليثي الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت.د

٨. الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، الدار الثقافية للنشر-القاهرة، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ-١٩٨٨م).

٩. علم الأصوات اللغوية، الدكتور مناف مهدي الموسوي، دار الكتب

العلمية -بغداد، الطبعة الثالثة (١٤١٩هـ-٢٠٠٧م).
١٠. علم الأصوات، دكتور كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنشر- القاهرة.
١١. علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دكتور محمود السعران، دار الفكر العربي -القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٩٧م).
١٢. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٦٣هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الجيل، الطبعة الخامسة (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م).
١٣. غرر الخصائص الواضحة وغرر النقائض الفاضحة، أبو إسحاق برهان الدين محمد بن إبراهيم المعروف بالوطواط (ت٧١٨هـ)، ضبطه وصححه وعلق حواشيه ووضع فهارسه: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م).
١٤. الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (ت٩٢٠هـ)، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية -مصر، الطبعة الأولى (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
١٥. المدخل إلى علم أصوات العربية، الدكتور غانم قدوري الحمد، دار عمار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).
١٦. من وظائف الصوت اللغوي، الدكتور أحمد كشك، دار غريب للطباعة، الطبعة الأولى (٢٠٠٦م).
١٧. المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر، الناشر: مؤسسة الإهرام -مصر، الطبعة الثامنة عشر (١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
١٨. النحو والدلالة، الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر -القاهرة، الطبعة الثانية (٢٠٠٥م).